التفاضل والمساواة بين الناس

بقلم جناب نقولا افندي حداد الصيدلي القانوني

٢

التفاضل بازاء القانون (١)

مع ان التفاضل في الامور الاجتماعية اساس التفاضل في سائر الاحوال الاخرى بل ان كل نوع من انواعه ناشىء عن النوع الاجتماعي لان القانون مبنيٌّ على العادات الاجتماعية او مستخلص منها — مع ذلك نرى ان التفاضل بازاء القانون اقل انواع التفاضل وفي البلاد المتمدنة يكاد الناس يتساوون امام القانون . وكلما ارتقت البلاد في الحضارة استوى الناس لدى القضاء بالرغم من تفاوتهم في قواهم او مزاياهم . ولعل سرَّ ذلك ان الشرائع الادبية والاجتماعية اختيارية بالنظر الى تنازع الناس البقاء . اي ان الفرد حرٌّ في ان يجري عليها او لا يجري ولكنه لا يرى بدًّا من الجري عليها حفظاً لبقائه . ولما كان الشيءُ الاختياري في مجراه الطبيعي والطبيعة تقضي بالتفاضل اقتضى ان يتفاضل الناس في الامور الاجتماعية كما مرَّ بيانه . بخلاف ذلك الشرائع المدنية فانها اجبارية اي ان كل فردٍ مُلزَمٌ بان يجري عليها رضي او لم يرضَ . ومتى كان القانون محتوماً وجب ان يجوز على الجميع بالتساوي والا عصاه الذين يجحف بهم

ومع ذلك لا نرى القانون والقضاء سالمين من التمييز والتفضيل . ففي انكلترا مثلاً يختلف موقف اللورد امام القانون عن موقف موقف العامة اختلافاً جوهرياً . وقد كانوا في العصور الوسطى متميزين عن العامة لدى القانون تمييزاً عظيماً جدًّا . وفي حين من

---

(١) نشرنا هذه المقالات المتسلسلة مع مخالفتها رأي الجامعة ومبدأها في هذا الموضوع وذلك لسببين . الاول انها تبسط باجلى وضوح وجوه القائلين بمبداء التفاضل وتفصل مذهبهم تفصيلاً بديعاً . والثاني انها مكتوبة ببراع قويم ولغةٍ سليمة جميلة . والمجلات كالمنابرُ ينشر منها كل مبداء ويسمع فيها كل صوت . ولذلك نستحسن ان تنشد المجلة كل ما يستحق النشر وان خالف مبدأها . وقد وردتنا مقالة من احد افاضل المهاجرين ردًّا على هذه المقالات فرأينا ارجاء فتح باب الرد على هذا الموضوع الى ما بعد فراغ الكاتب منه

الاحيان لم يكونوا ليعاقبوا على جريمة القتل . وقد حفظ التاريخ بعضاً من اخبار هذا التفاضل امام القانون لعهد دولة الفراعنة اذ كان الناس طبقات اشهرها الكهنة والجنود والعامة ولكل طبقة معاملة قانونية تمتاز على الطبقة التي هي دونها . وكان مثل ذلك في ايام زهو الدولتين اليونانية والرومانية مع ما اشتهرت به تانك الامتان من بث روح الديمقراطية

والان ترى الغربيين يتعمدون هذا التفاضل في كل بلاد يستعمرونها ففي الترانسفال كان البوير يميزون ابناء جنسهم على السود الوطنيين تمييز الانسان على الحيوان تقريباً . فكانوا يحظرون عليهم ركوب الدراجات « البيسكلت » وركوب الدرجتين العليين في السكة الحديدية والمشي على ارصفة الشوارع . والانكليز يفعلون شيئاً من ذلك في السودان الان . والاميركان يعاملون السود عندهم شيئاً من مثل هذه المعاملة والانكليز يجرون في الهند مثل هذا المجرى وياتون في مصر ما يقاربه . والجندي الانكليزي في مصر مميز على الجندي المصري تمييزاً قانونياً فان سمو الخديوي اصدر امراً عالياً بتاليف محكمة مخصوصة لمحاكمة كل وطني يعتدي على جندي انكليزي . وفي هذه الاثناء حدثت حادثة في دنشواي اعتدى فيها بعض الاهالي على اربعة ضباط انكليز فأُرت هذه المحكمة المخصوصة هول يوم القيامة . هذا واكثر حكومات الشرق تعامل الامراء معاملة قانونية تختلف جداً عن معاملة العامة

ثم ان القانون نفسه ينصر في بعض الاحوال على التميز بين فئة وفئة . مثال ذلك قانون برانجه الذي أُدخل في المدة الاخيرة الى القانون المصري ومن مقتضاه ان يُسامح المتهم بجنحة من تنفيذ العقاب عليه اذا لم تكن له سابقة حتى اذا كرّر الجنحة في مدة خمس سنين ينفذ فيه العقابان معاً

ذلك في القانون واما في القضاء فان القضاة يراعون في احكامهم الاشخاص وحالتهم ومنزلتهم في الهيئة الاجتماعية وكثيراً ما يستعملون الرأفة بالنظر الى حالة المجرم لا الى نوع جرمه والقانون نفسه يسوّغ لهم ذلك

بقي ان نرى هل يسوغ التفاضل القانوني في حالٍ من الاحوال اي هل هو عادل وهل ترجح فائدته الاجتماعية على ضرره

رأينا في ما سبق ان التفاضل الاجتماعي اذا انتهج نهجاً قويماً كان عدلاً لامحالة بالنظر لتفاوت الناس في مزاياهم العقلية والادبية ولما كان القانون مستمداً من الشرائع الادبية

والعادات الاجتماعية وجب ان يستمد روح التفاضل ايضاً لانه من الظلم ان يتساوى المتهذب والمتشرد امام القانون والقضاء اذا افضى احتكاكهما الى الشجار والقتال

اشتريت مرة شمامة من بائع شمام طواف على شرط ان يقطعها فان كانت حلوة صح البيع والا فسد . فقطعها فكانت تافهة . فرفضتها فحتم عليّ ان آخذها وشفع تحتيمه بالكلام المهين لكي يستفزني الى الشجار ويجرني الى المخفر فاعتصمت بالحلم وحاولت ان اصرفه بالحسنى فأبى واذ رأى ان بذاءته لم تفضِ الى مبتغاه في مخاصمتي حتم ان آخذ الشمامة او يختصم معي وغمز رفيقه — وسلّ الشمام على راسه — ان يدفعه لكي يقع الشمام ويتكسر فيدّعي اني المعتدي . واتفق ان كان الشرطي قريباً منا فاستدعيته في الحال فصرفه من امام منزلي بالرغم منه

كان بائع الشمام يبتغي ان يشتجر معي لكي يضطرني الى دفع ثمن الشمامة لانه يعلم اني استنكف الذهاب الى المخفر وهو لا يستنكفه ولا يخشاه مهما كانت النتيجة . وكثيراً ما يلجأ الحمارة والحوذية ومساحو الاحذية في مصر الى هذه الطريقة لنيل مطامعهم من الناس . ولا قل خلاف بينهم وبينك يهينونك لكي يستفزوك الى ضربهم وحينئذٍ يستدعون البوليس ليحركك معهم الى المخفر . وكثيرون منهم يفتخرون بذلك ولا سيما اذا كان حكم القاضي مذنباً لخصمهم ولكن المهذبين يفضلون احتمال الاهانة على الوقوف معهم امام القضاء

ولا يغرب عن ذهن اللبيب ان هؤلاء الذين يتحككون بالناس ويستفزونهم الى الخصام لكي ينالوا منهم ما ربهم هم من اسافل البشر واحط الناس فلا يسوغ ان يساووا الناس المهذبين المتأدبين امام القانون لكي يتسلحوا ضدهم بهذا التساوي على الاسلوب الذي سبق بيانه . وكنت كلما حدثت لي حادثة كحادثة الشمامة بل افظع منها اشعر ان هذه المساواة القانونية خطاء في هذه البلاد التي يتباين الناس فيها كل التباين في اديباتهم وقلتُ في نفسي ان الانكليز المسيطرين على الحكومة المصرية قد تسرّعوا في تعميم المساواة في البلاد لانه كان الواجب عليهم ان يعمموا التعليم والتهذيب اولاً لكي ترتقي اخلاق العامة وتتدمث طباعهم وتنشأ فيهم بعض الفضائل وثمّ اذا عمموا المساواة القانونية وغيرها كانوا صائبين ومصلحين حقيقةً . ولعمر الحق لو كان عامة الشعب ارقى منهم الان لما دفع الجهل اهل دنشاوي في تيار غضبهم حتى ضربوا الضباط الانكليز وعوقبوا بالشنق والليمان ولو كنت صاحب اللواء او المؤيد او الظاهر لما لمت الانكليز على قساوة حكم المحكمة المخصوصة لانهم مضطرون ان يقسوا هذه القساوة لحفظ مركزهم بل كنت الوم الحكومة المصرية التي

لم تزل تاركة الفلاحين يخوضون في عباب جهالتهم ومع ذلك تلقي عليهم المسألولية التي تلقيها على فئة راقية

فترى ان تساوي الناس امام القانون مع تباينهم في المعرفة والاداب خلل فاضح لانه ينشط المتسفل الذي يستطيب مناخ السجون ويستلذ بقساط الحبس الى التعدي على المتادب الراقي واهانته وضربه لكي ينال وطراً منه كما تقدم الاستشهاد عليه

« تأتي البقية »

شيء عن الجامعة

﴿ الجامعة في اميركا ﴾ تحت هذا العنوان ورد في رصيفتنا جريدة المحيط التي تطبع في نيويورك ما حرفيته

اجتمعنا بحضرة الرصيف الفاضل فرح افندي انطون صاحب مجلة الجامعة واذ اردنا معرفة حقيقة ما صادفته هذه المجلة الزاهرة بفوائدها من الاقبال في العالم الجديد وعواطف القراء من نحوها استطلعنا رايه في ذلك فاجابنا بما خلاصته :

« ان الاقبال على الجامعة الذي وجدناه بين اخواننا في اميركا الشمالية والجنوبية منذ صدور اول جزء منها الى الآن خصوصاً في الولايات المتحدة والبرازيل يقضي علينا باعادة الشكر والثناء على افاضل المهاجرين الذين ينشطون العلم والادب في هذه الديار ويأخذون بناصر المشروعات العمومية النافعة . ومما زاد امتناننا اننا راينا افاضلهم يقدرون عمل الجامعة الجدي قدره ولا يجهلون التعب الذي يُبذل في مجلة كالجامعة تأليفاً وطبعاً في بلاد بعيدة عن مركز المطابع العربية . وقد وردت على الجامعة عدة كتب من قرائها في اميركا اظهر كتابها مسرتهم ببقاء الجامعة في مركزها العلمي الادبي الذي كانت عليه خارج اميركا وبعدم تحويلها الى مجموعة قصص وفكاهات لا سيما وان عدد النسخ التي يرسل منها الى خارج اميركا يعادل الآن ما يرسل منها الى اميركا نفسها اي انها مجلة عمومية منتشرة في جميع اقطار الكرة الارضية من اقاصي الهند حتى مصر والشام ومنها الى اقاصي الاوقيانوس . فالمقالة التي تكتب في نيويورك تقرأ وتحفظ في كل قطر . وهذا يوجب عليها ان تكون